تاريخ الإرسال: 2011/03/07 - تاريخ النشر: 2011/06/20

النحو العربي
الأجرومية نموذجا

يوسف بن هورة

أستاذ مؤقت

جامعة زيان عاشور جلفة

إنَّ العربية عصب كل معرفة وأداة تعارف الملايين من البشر، وهي منطلق تأسيس كل فعل إبداعي، فهي الغيث الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويوجد العشب بعد العدم، وانطلاقا من هذا حاولت أن أساهم في وضع لبنة تضاف إلى غيرها من اللَّبنات، التي ساهم بها كل الغيورين على الحرف العربي، وديدن كل واحد منهم اكتشاف أسرار لغة الضاد، التي قيل فيها «التي لم يحط بها إلا نبي، والتي حظيت بأعلى المراتب لارتباطها بكتاب الله، وكل مرتبط بالله معجز باقٍ لا يضره من كاده»[1]

ولا يخفى على أحد ما لعلم النحو من فائدة جمّة وأهمية قصوى في إدراك معنى الجملة العربية فإننا لا نفهم قوله تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء }[2] إلاَّ بالنحو نعرف أن العلماء يخشون الله، وقول الله تعالى { وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ... }[3] ندرك بالنحو أيضا أن المبتلِي هو الله والمبتلَى هو إبراهيم عليه السلام، ومن هنا آل علماء النحو على أنفسهم منذ أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) والخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170هـ) ثم تلميذه سيبويه (ت180هـ) فالأخفش (ت215هـ) إلى وقتنا التنظير والتقعيد للظواهر النحوية والكلام العربي بشكل عام.

والحديث عن النحو يسلمنا للحديث عن الإعراب فرغم أنهما مصطلحان متعاوران إلاَّ أنَّ هناك تداخلا كبيرا بينهما لدى الكثير من الناس فهم يتوهمون أن النحو إعراب ،

1ـ منهج البحث وتحقيق النصوص، محمد بن صالح ناصر، معهد الاستقامة للدراسات الاسلامية، زنجبار، ط4، 1419هـ/1998م: ص90

2ـ سورة فاطر، من الآية28.

3ـ سورة البقرة، من الآية124.

وأن الإعراب نحوٌ، فما حدُّ النحو؟ وما العلاقة بينه وبين الإعراب؟ وما الدوافع التي كانت وراء نشأة علم النحو العربي؟

جاء في لسان العرب لابن منظور(ت711هـ) أن النحو هو «إعراب الكلام العربي، ويسمي أهل اليونان علم الألفاظ والعناية بالبحث عنه نحوا»[4]، أمَّا اصطلاحا فيعرف ابن جني (ت392هـ) النحو بقوله: «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رُدَّ به إليها»[5] وقد ذهب أحمد سليمان الياقوت «أن ابن جني في هذا التعريف قد جمع بين نوعين من الدراسة، الصَّرف Morphology والتركيب Syntaxe وهما يُكوِّنان في الدراسات اللغوية الحديثة ما يسمى بعلم النحو Grammar»[6]. فالصَرف حينما تكلم عن التثنية والجمع و... ، والنحو في حديثه عن الإضافة والإعراب.

والإعراب لغة له معان كثيرة منها الإبانة، يقال: أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان عنها، والتحسين نحو جارية عروب أي حسنة، وأعرب الرجل إذا كان عارفا بالخيل العتاق. أمَّا اصطلاحا ففيه مذهبان، أحدهما لفظي وقد اختاره ابن مالك(ت672هـ): «بأنه أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر المعرب »[7] والثاني معنوي وهو مذهب سيبويه (ت180هـ) وحدُّه «الإعراب تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا»[8]. والواقع أن النحو دائرته أوسع من الإعراب بل إن الإعراب جزء لا يتجزأ من النحو ومكون من مكوناته «ولو كان النحو هو الإعراب لكانت اللغات غير المعربة –كالانجليزية مثلا- لا يوجد بها نحو »[9].

أما بالنسبة لنشأة النحو العربي فقد تجاذبته روايات عديدة نذكر منها أن أبا الأسود الدؤلي (ت69 هـ) سمع رجلا يقرأ قوله تعالى {إن الله بريء من المشركين ورسوله }[10]، فَجَرَّ كلمة «رسولِه» فقرر وضع النحو .

ورواية أخرى مفادها أن قوما قدموا إلى زياد فقالوا: «أصلح اللّه الأمير توفي أبانا وترك

4- لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، دار صبح وإديسوفت، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م: 14/71.
5-الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1999م: 1/35.
6- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان الياقوت، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1983م: ص20.
7-شرح ألفية ابن مالك، أبو عبد اللّه بدر الدين محمد ابن الناظم، تحق: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت: ص33.
8- متن الآجرومية، ابن آجروم الصنهاجي: ص2.
9- ظاهرة الإعراب في النحور العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، المصدر السابق: ص20.
10- سورة التوبة، من الآية3.

بنون »[11]، فأمر أبا الأسود أن يضع للناس العربية. وقصة أبي الأسود مع ابنته حينما قالت ما أحسنُ السماءِ فردَّ عليها: نجومُها. فقالت: إنما تعجبت من حسنها، فقال: إذن فقولي ما أحسنَ السماءَ! فوضع العربية.

ومهما يكن من اختلاف الرِّوايات فإن الغاية واحدة وهي تقويم اللِّسان صونا للعربية من اللّحن.

وحينما التفت علماء النحو إلى البحث عن العلل والتأصيل لقواعد اللغة راحوا يلتمسون مواد الاحتجاج لتشفيع أحكامهم فشفعوها بالشواهد النقلية من خلال الرجوع إلى كتاب اللّه تعالى والحديث النبوي الشريف، ثم إلى الشعر الجاهلي، فشعر طبقة المخضرمين وشعر المتقدمين أمثال الفرزدق وجرير والكميت وذي الرمّة، لكن تجدر الإشارة إلى أن علماء النحو كانوا ولا يزالون بين مؤيد ومعارض فيما يتعلق بمسألة الاحتجاج بالحديث النبوي، فالاستدلال بحديث النبي صلى اللّه عليه وسلم أقرَّه ابن مالك (ت672هـ) وجوَّز الشاطبي (ت684هـ) الاحتجاج بالحديث النبوي الذي عني بنقل ألفاظه، ورفض أبو حيان (ت745هـ) وغيره الاستدلال به ومسوغهم في ذلك حجتان:

الأولى: أن الأحاديث الشريفة لم ينقلها الرواة كما سمعت وإنما رويت بالمعنى مثل ما رُوي من قوله r «زوجتكما بما معك من القرآن» ، «ملَّكتكها بما معك من القرآن» «خذها بما معك من القرآن». فهم يرون أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم لم يتلفظ بتلك الألفاظ كلها[12].

لكن عبد القادر البغدادي (ت1093هـ) أوضح الردود التي عقَّب بها العلماء على هذا المذهب بأن النقل بالمعنى وقع قبل عصر التدوين وقبل فساد اللغة.

والثانية: فمردودة أيضا بدعوى أنه ليس من المعقول عدم الاستدلال بالمادة يقرُّ عدم صحة الاستدلال، وفي سياق هذه الردود أعاب الشاطبي(ت684هـ) على أولئك الاستشهاد بشعراء الجاهلية وعدم احتجاجهم بكلام صفوة الخلق بحجة غاية في الإقناع: «لم نجد أحدا من النحويين استشهد بحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم الذين يبولون على أعقابهم وأشعارهم التي فيها الفحش والخنى،

11ـ ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، المصدر السابق: ص17.

12ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ/1997م: 1/11.

ويتركون الأحاديث الصحيحة».[13]

وإيمانا بهذا كلّه سارع جهابذة القرون الأولى بالتأليف في النحو أمثال سيبويه(ت180هـ) والمبرد(ت286هـ) وابن عصفور(ت669هـ) وابن مالك وأبي حيان الأندلسي(ت745هـ) وغيرهم، فألفوا كتبا لا يغني أحدها عن الآخر دون أن ننسى متن الآجرومية لابن آجروم (ت723هـ)، الذي يُعدُّ مظنة من مظان الصَّرح النحوي على امتداد الأزمنة والأمكنة.

فمن هو ابن آجُرُوم ؟ وما هي المادة النحوية التي قدَّمها؟ وما القيمة العلمية للمتن وما جهود العلماء في شرحه؟

1) ترجمة ابن آجُرُوم:

هو أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجُرُوم[14]، من علماء اللغة، وفلتة من فلتات الزمن، ولد بفاس سنة 672هـ اتخذ القاهرة قبلة للتزود المعرفي فنهل من معينها. درَّس في فاس، كانت وفاته سنة 723هـ، ودفن في باب الجديد بفاس، من مؤلفاته «المقدمة الآجُرُوميَّة» وهي مقدمة نافعة ألفها بمكة المكرمة، و»فرائد المعاني في شرح حرز الأماني».[15]

2) المكانة العلمية لصاحب الآجُرُوميَّة:

وصف أبو زيد عبد الرحمن المكّودي (ت801هـ)، ومحمد بن محمد بن إسماعيل الرّاعي (ت853هـ) في مقدمتي شرحيهما للمتن أن ابن آجُرُوم: « إمام في النَّحو ورجل عرف بالبركة والصلاح، ويشهد بصلاحه عموم نفع المبتدئين بمقدمته».[16]

وقال عنه ابن مكتوم (ت749هـ): « نحوي، مقرئ وله معلومات من فرائض وحساب وأدب بارع وله مصنَّفات وأراجيز في القراءات وغيرها وهو مقيم بفاس، يفيد أهلها من معلوماته المذكورة، والغالب عليه معرفة النحو والقراءات»[17]

13ـ المصدر نفسه: 1/12.

14ـ وتعنى بلغة البربر الفقير الصوفي.

15ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1384هـ1964م: 1/238، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصطفى بن عبداللّه المعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ1992م:2/1796، والأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992: 7/33.

16ـ بغية الوعاة:1/238، 239.

17ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت: 3/62.

3) موضوعات المتن: احتوى الكتاب على الأبواب التالية:

- باب الكلام وما يتألف منه
- باب الإعراب.
- باب معرفة أمارات الإعراب
- باب الأفعال.
- باب مرفوعات الأسماء.
  - باب الفاعل.
  - باب نائب الفاعل.
  - باب المبتدأ والخبر.
- باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر:
  - باب كان وأخواتها.
  - باب إن وأخواتها.
  - باب ظن وأخواتها.
- باب النعت.
- باب النكرة والمعرفة.
- باب العطف.
- باب التوكيد.
- باب البدل.
- باب منصوبات الأسماء:
  - باب المفعول به.
  - باب المصدر.
  - باب ظرف الزمان وظرف المكان.
  - باب الحال.
  - باب التمييز.
  - باب الاستثناء.
  - باب لا.
  - باب المنادى.

- باب المفعول من أجله.
- باب المفعول معه.

- باب مخفوضات الأسماء.

4) القيمة العلمية للمتن: الآجُرُوميَّة المقدمة الشهيرة في النَّحو يطلق عليها البعض الأجُرُوميَّة، والصواب الآجُرُوميَّة[18]، وهي مختصر في النَّحو تُعوِّل عليه المدارس في التَّعليم حتى الآن. طبعت أوَّل مرَّة في روسيا سنة 1631م، ثم في ليدن سنة1677م ثم في باريس ومصر والشام والآستانة وغيرها.[19]

5) جهود بعض العلماء في شرح الآجُرُوميَّة: [20]

- محمد بن أحمد يعلى الحسني (ت723هـ):[21]
  - الدرَّة النحوية في شرح الآجُرُوميَّة.
- محمد بن محمد بن إسماعيل الزّاعي (ت853هـ):
  - المستقل بالمفهومية في حل ألفاظ الآجُرُوميَّة.
- أحمد بن محمد بن عبد السلام (ولد سنة847هـ):
  - النخبة العربية في حلّ ألفاظ الآجُرُوميَّة.
  - الجواهر المضية في حلّ ألفاظ الآجُرُوميَّة.
- محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت977هـ)
  - نور السجية في حلّ ألفاظ الآجُرُوميَّة.
- أبو العزم شمس الدين محمد الحلاوي المقدسي (ت883هـ)
  - الكواكب الضوئية في حلّ الألفاظ الآجُرُوميَّة.
- أحمد بن قد بن أحمد (ت1044هـ): [22]
  - الفتوح القيومية في شرح الآجُرُوميَّة.
- أحمد بن محمد بن حمدون السلمي ابن الحاج (ت بعد 1269هـ)

18ـ معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة: محمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت، 1999م: ص5.

19ـ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط1 1425/1426هـ2005م: 3/165.

20ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، تحق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1968: 2/695. وكشف الظنون2/1796، 1797. وتاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1984م: 4/397، 398. ومعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ1980م: ص33.

21ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة الجزائر، تحت رقم: 146.

22ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة الجزائر، تحت رقم: 163 و164.

ـ العقد الجوهري من فتح الحي القيوم في حل شرح الأزهري على مقدمة ابن آجُرُوم.

- أحمد بن أحمد النجاري الدمياطي (ت بعد 1309هـ)

ـ منحة الكريم الوهاب وفتح باب النّحو للطلاب.

- محمد بن عمر البنـتني (ت1316هـ).

ـ كشف المروطية عن ستور الآجُرُوميَّة.

- محمد إسماعيل الطهطاوي (ت1341هـ).

ـ الباكورة العربية في شرح متن الآجُرُوميَّة.

- عبد الرحيم بن عبد الرحمن الجرجاوي (ت1342هـ)

- عوائد الصلات الربّانية على متن الآجُرُوميَّة.

- عبد الرحمن بن عبد الرحمن الجرجاني السيوطي (ت1342هـ).

ـ فوائد الطارف والتالد على شرح الآجُرُوميَّة للشيخ خالد.

6) منظومات الآجُرُوميَّة:

ونظرا للمكانة العلمية التي اكتساها ويكتسيها متن الآجُرُوميَّة زمانا ومكانا، في تقويم الأداء اللغوي للناشئة جعل بعض العلماء يزيدون عن الشروح والحواشي نظم المتن في منظومات، نذكر منها:

ـ «الدرَّة البهية في نظم الآجُرُوميَّة»، لشرف الدين يحي بن موسى بن رمضان العمريطي(ت890هـ) وقد طبع هذا النظم عدة طبعات منها: ـ طبعة مكتبة آل ياسر، مصر، ط1، 1415هـ. وشرحه ابراهيم بن محمد البيجوري(ت1277هـ) بعنوان: «فتح رب البرية على الدرَّة البهية نظم الآجُرُوميَّة». وقد طُبع بمصر سنة1322هـ.

ـ «جمال الآجُرُوميَّة»، لرفاعة بن رافع الطهطاوي (ت1290هـ)، طُبع في مطبعة بولاق، مصر، 1280هـ.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذا المقال، هي أهمية الدَّرس النحوي في مساهمته ـعلى الأقلـ في تقليل ظاهرة اللَّحن التي اتسعت دائرتها بين أوساط المتعلمين، هذا فضلا عن محاولة التقرب عن كثب للتعرف على مدى إسهامات الرَّعيل الأوّل من علماء النحو الذين كان لهم قصب السَّبق في التنظير لفلسفة النحو وتقعيد القواعد، وهي جهود لا يحقرها إلاَّ إنسان مغرض.

ومن جهة أخرى اكتشفنا أن كثرة الشروح ووضع الحواشي لمؤلَّف واحد فيه دلالة على أن المشتغلين على النحو العربي حاولوا تبسيط المادة النحوية الموجودة في التصانيف القديمة الحبلى بالإسهاب المؤدي إلى الغموض والمحشوة بمصطلحات بعيدة لا يسبر أغوارها إلاَّ الراسخون في العلم.

كما أن هذا المقال عرَّج على مكانة ابن آجُرُوم ومتنه الذي يعدُّ مظنة من مظان النحو العربي يضاف إلى نفائس الكتب النحوية، وما شروحات العلماء على امتداد الجغرافية العربية إلاَّ آية على قيمة الكتاب الذي يبرز مدى ما قدَّمه علماء المغرب العربي لخدمة الحرف العربي.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992م.
2. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1384هـ1964م.
3. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط1 1426/1425هـ2005م.
4. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت، ط4، 1984م.
5. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ/1997م.
6. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط4، 1999م.
7. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
8. شرح ألفية ابن مالك، أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن الناظم، تحق: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت..
9. ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سليمان الياقوت، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1983م.
10. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصطفى بن عبدالله المعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ1992م.
11. لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، دار صبح وإديسوفت، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م.

12- متن الآجرومية، ابن آجروم الصنهاجي.
13- مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة الجزائر، تحت رقم: 146.
14- مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة الجزائر، تحت رقم: 163 و164.
15- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ1980م.
16- معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، محمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت، 1999م..
17- منهج البحث وتحقيق النصوص، محمد بن صالح ناصر، معهد الاستقامة للدراسات الاسلامية، زنجبار، ط4، 1419هـ/1998م.
18- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، تحق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1968.